كاوه

قصة بقلم : مدحي المندلاوي

ابان الحرب العالمية الاولى سيطرت روسيا القيصرية على اجزاء واسعة من كردستان . وهذه القصة مهداة الى اولئك القرويين البواسل الذين دافعوا عن اراضيهم ، وضحوا في سبيلها .

- 1 -

لسنا بوثنيين ، ولكننا نعبد احجار واطيان أرضنا ، والامة التي تقدس ارضها جديرة بان تعيش حرة ، ومرفوعة الرأس بين الامم .

- 2 -

خلف جبل «كامير» تركت الشمس حزنا داكنا بين ثنايا الغيوم التي كانت تزحف شرقا بضراوة . هاهي الشمس تعود من جديد الى البعيد بعد جولة متعبة بين الأزقة والسنابل ، وتترك الارض لمصيرها المظلم . وعند منعطفات كامير انحدرت قطعان الاغنام والماعز تسير بخطوط مستقيمة نحو القرية تاركة ورائها سحائب من الاتربة التي امتزجت مع ا نفاس الحيوانات وفضلاتها ورائحة الحليب والصوف .

كانت الاغنام مغتبطة للعودة الى صغارها لذلك اسرعت كعادتها وهي ترسل ثغاءً حادا اختلطت مع اصوات الاجراس ونباح الكلب العملاق «شالان» . اما الراعي العجوز «ئيوەرام» فقد اكتفى كعادته بالسير في المؤخرة محتضنا حملا صغيرا ولد في الظهيرة . وعلى طول الطرق الموصلة الى القرية كان الرجال والنساء يحملون ادواتهم واحمالاً من الحطب تسري بينهم احاديث ذات شجون وهمسات ثقيلة عن الغد والعودة الى الحقل . ومن بعيد بانت قرية «بالاگريوه» ببيوتها الطينية المتهرئة تمتد في صفوف متراصة الى الاعلى كأنها سلم صنعه عملاق ليصعد به الى قمة الجبل . وجلبت نظر القرويين مجموعة من النسوة الغجريات يغتسلن في النهر بينما انهمكت احداهن باصطياد القمل من رأس صاحبتها . كن جميلات رغم ذلك البؤس القاتل الذي يحكم اعينهن السوداء الواسعة . وعلى جانبي الطريق كانت صفوف متراصة من اشجار البلوط والسنديان تمتد على مد البصر لترى في نهايتها بالاگريوه وهي تمتد على جسد الجبل كعباءة سوداء . وسرعان ما بان القمر من

فوق كامير واشرقت الثلوج في لمعان جميل . وعند بداية القرية كانت اشجار القوغ الهيفاء تمتد الى الاعلى بصورة مستقيمة ، تعانق السماء ، مزهوة بقامتها المديدة بين كل الاشجار يلفها سكون رائق رغم استيطان الاف العصافير والحمائم على اغصانها . ولكن ضجيج القرية قد بدأ الان ، فالاغنام تبحث عن صغارها بعد ان حلبت ، والخيول تصهل بشدة طالبة العلف . وصوت المنادي يعلن عن فقدان بقرة الارملة «بنه‌وشه» ويهيب الجميع بالبحث عنها . واخر يعلن عن تأخر وصول قطيعه ، ويسأل الرعاة بصوت مسموع . ولكن كل ذلك الضجيج يخفت رويدا ، ويعود الهدوء الى القرية . فالاغنام تلتقي بصغارها وتعيد مضغ الطعام في الزرائب على ضوء القمر . وتعود بقرة الارملة ، وتسكت الخيول . ويأخذ الرعاة بنادقهم برفقة الكلاب ليتجولوا حول الزرائب بانتظار الذئاب ، فالنهار هنا للانسان ، والليل للكواسر . وبعد ان يشبع الرجال يعودون الى مغازلة نسائهم واسترضائهن . ومن ثم يخرجون بعد ان يتزينوا ببنادقهم ويحملون الفوانيس الى بيت «مام‌وه‌لى» احد اعيان القرية المحترمين . فديوانه الوحيد الذي يتحمل همومهم وثرثتهم . وعلى كل حال فهو الوحيد الذي يستطيع ان يقدم الشاي مرتين في سهرة واحدة . وهناك يسمعون بشغف اخبار المهربين ، ومعسكرات الجيش الروسي ، وعن اتاوات ضباطهم . ومن ثم يغني «ميرو» الجميل بصوت عذب يسكت له الجميع . ولا يدع الملا حسن الفرصة تفوته فيرتفع صوته ليتحدث عن الله وخاتم الملك سليمان . ويحكي للشباب قصة الامير ارسلان الرومي وخرامانى جين . ويعود الحديث الى الجيش الروسي والمعاطف الطويلة . ويأخذ كل منهم يعطي رأيا جديدا يختلف عما عرضه في الليلة الماضية . وتعالى الصراخ وصيحات الغضب ، وتحدث الشيخ شامار عن المراعي والارض وجرائم الروس . ثم نهض واستوى بقامته الفارعة وتقاطيع وجهه الجبلي المتصلب . كان يبدو وكأنه الجد الاكبر لكل الجبليين قام توا من نعشه . بدا مستقيما كالاسفندیار بلحيته البيضاء الكثه وشاربيه الطويلتين . ووقف بجانب السنديانه العجوز حيث علق الضيوف فوانيسهم على ساقها . واخذ يرتب بحنان على ساق الشجرة باصابعه الخشنة الطويلة ، واردف يقول ..

- نعم انا عجوز كهذه السنديانه ، ولكنني قوي مثلها . وعندما أموت سيكبر صغاري كصغار السنديان ، و يعلون مع القمم . ان جذوري ممتدة الى اعماق هذه الارض ، وهي تعشقني ، وتعطيني اسباب القوة والبقاء ، ولسوف اكون حبيبا مخلصا وغيورا . ان الارض يا ابنائي امرأة صالحة تعطينا الخبز وابناء نجباء . وفي النهاية نتدفأ في رحمها بعد ان يتركنا الاهل والخلان .

واستحسن الجميع كلامه الرصين الهادىء . اما «ناوخاس» فقد صفق فرحا ونظر باعجاب الى الشيخ الصخرة الذي مسد شاربيه براحة يده اليسرى ، وجال في وجوه القوم ، واخذ يكمل حديثه ..

- نعم ، سأبقى وسيتدفأ ابنائي في ظلال السنديان .

وارتفع صوت ناوخاس الجهوري قائلا ..

- انت سعيد الحظ يا شامار . ان الارض تعشقك ، وهي فخورة بك ، انك لا تغضبها ولهذا تعطيك اكثر . انها حبيبة مخلصة ، بل انها طاهرة كفاطمة الزهراء !

وانحنى الجميع واضعين ايديهم على صدورهم ورددوا ... اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد !

وحول الجميع نظراتهم الى الخارج حيث ظهر شيرخان وبيده بندقية روسية طويلة يلوح بها امام الجميع ، ويقفز هنا وهناك كقرد مخبول . ثم صرخ قائلا ..

- هيه .. اخذتها من جندي روسي !!

وصاح نامدار

- وكيف ؟ !

- اظنه اصاب حمامة .نعم .. نعم . وبعد ان وضع البندقية جانبا رأيته يتسلق شجرة البلوط بخفة السنجاب .. ذلك الروسي اللعين !! واصبح في قمة الشجرة . عندها تقدمت بهدوء وعلقت البندقية على كتفي كأنني ورثتها من جدي مايخان !

- والجندي ماذا فعل ؟ ! سجله نامدار بلهفه .

- آه ، الجندي ! زعق كثيرا كالبومة الغبراء ، ولكنني صوبت البندقية نحوه وأقسمت بروح مايخان العزيزة ان لم يسكت زرعت رصاصة في جبينه . ويبدو انه فهم قصدي فكتم انفاسه ، وبدا كأنه قبر (حاجي‌وه‌تيار) ، ولكنني لا ادري ماذا حل به ، لعله الان في طريقه الى موسكو ليشكوني الى

القيصر !!
وفتح فمه ليضحك ملئ شدقيه . وغرق الجميع في الضحك . اما شامار فقد قهقه عاليا وقال ..
- لعنك الله والانبياء يا شيرخان !
وهنا علا صوت «بيژەنگ» موجها كلامه الى شيرخان
- حسنا ايها الابليس الاحمر عليك ان تتخلص من هذه البندقية بسرعة والا سلخ الضابط الروسي جلدك حيا !
- اوه .. لقد فكرت بذلك ايها الصديق القديم ، وقررت ان ابادلك اياها ببندقيتك المكنزي العمياء ! وزعق بيژەنگ قائلا ..
- عمياء !! ماذا تقول ايها المسخ اللعين ، انها لم تكن كذلك ، آه لو اعرف ذلك العنكبوت الذي سرق طريدتي !
- وماذا ستفعل به ؟ ! سأله شيرخان .
- افتح فمه واطلق ما في بندقيتي من رصاص فيه ! !
وهنا بلع شيرخان ريقه بصعوبة وقال
- لا .. لا اود ان اكون مكان ذلك اللص البائس !
وكان بيژەنگ قد ذهب الى الملا حسن ومعه دجاجة سوداء سمينة ، ورجاه ان يكتب له دعاء يفتح بها شهية بندقيته للتهديف . بانت نظرة خبيثة من عيني بيژەنگ وقال ..
- يا افعى جهنم ، لا ادري كيف لم افكر بذلك !
- بماذا لم تفكر ؟! قال شيرخان ذلك وهو يرتعد من الخوف .
- بك !!
قالها بيژەنگ ونهض غاضبا . ولكن شيرخان كان قد قفز خلف شامار الذي كان لا يزال واقفا بجانب السنديانه ، وقال ..
- احمني من هذا الدب يا سيدي ! ضحك شامار وقال ..
- اتركه يا بيژەنگ الا تراه وقد ازعج روسيا !!
- آه .. لولا العم شامار ! هكذا دمدم بيژەنگ وهو يجلس في مكانه . كان ميرو ، الفتى الشاب ، من اكثر المعجبين بالشيخ شامار لذلك اطال بنظره صوبه وابتسم في داخله . لعله تذكر ابنته الفاتنة «سازان» . لطالما رآها عند النبعة تملأ جودتها . وكان هو يختفي خلف اعواد القصب ، ويفضل ان ينظر اليها من بعيد . انها بسيطة كأية جبلية ، عينان عسليتان بلون البن ، وانف دقيق وكذلك الفم . اما شعرها فقد كانت تتألف من عشرات الظفائر الطويلة المطعمة بخيوط زرقاء وحمراء . كانت جميعها تمتد من القذال حتى كعب قدميها وهي تعربد على ظهرها مع وقع خطواتها القصيرة . وكان لكل ظفيرة اسم خاص ، فكل فتاة في القرية لها ظفيرة خاصة بها تخصها بالحناء ، وتزينها بالنمائم والخيوط الملونة . فهذه ظفيرة توبا وتلك لخرامان والاخرى لتاوس وخاتون ، وهكذا . مرة لحق بها وهي تحمل جودتها عائدة الى القرية تلعثم في بادئ الامر ولكنه قال
- هل احملها عنك ، انها ثقيلة بعض الشئ !
- بل انت الثقيل يا ميرو !
- انا احبك يا سازان .
- ابتعد عن طريقي انك تفهمني .
- اتحبينني ؟ !!
- ساخبر والدي !
- لا اخافه ، ثم ان العم شامار يحبني .
- حسنا ، سترى كيف سيطردك من الديوان !
- وهل يسعدك ذلك ؟ !
- ولم لا ؟ !
- حسنا ، انا ذاهب ولكنك ستفتقدينني . اقسم انني لن اعـ..و.. واه يا سازان لو تدركين كم احبك ! قال ذلك وتسمر في مكانه ، بينما ابتعدت سازان وهي تحمل بين ثنايا شفتيها بسمه محببة . ولحقت بها «كەوكى» قائلة ..
- انك قاسية يا سازان . آه لو يقول لي مثل هذا الكلام !
- خذيه لك !
- كيف وانت في القرية ؟ !
- اذن اسكتي يا حمقاء . لو كان يصدني مثلما افعل لقلت له نفس كلامه ! ولكن اسمعي قولي له ان ينتظرني غدا صباحا على رابية كووكاو ، ساخذ خرافي الى هناك .
ضحكت كەوكى قائلة ..
- يا شقية !!
كان ميرو لا يزال يحملق في وجه عمه الموعود رغم ان الحديث كان قد اخذ مجرى اخرا ، فالجميع كانوا يتسائلون «كيف نطرد الروس» . اقترح ميرو الاغارة ليلا على معسكرات الجيش الروسي .
وهذا ما اغاظ «ئازك» تاجر القرية واحد اعيانها الذي نهر ميرو قائلا ..

- لماذا هذا التهور يا ميرو ، انك تقودنا الى الموت !

ولكن ميرو عنفه بدوره ، وقال

- لست متهورا يا سيد ئازك ، ولكن انما يولد الانسان ليكون عاشقا لارضه والا فما نفعه ؟ !
- وحب الناس ؟
- حب الناس يولد مع حب الارض !
- انك لا تعرف حدود لسانك يا ميرو ، آه لو سمعك الروس !
- لست خائفا منهم ، انهم غرباء ينعمون بالخبز الحار والمراعي ومغازلة نسائنا !
- هيه ايها الاحمق هل تريد ان تناطح القيصر ؟ !!
- انا اناطح أيا كان في سبيل بقائي .
- بقاؤك يلزم الصمت .
- الصمت جزء من الهوان .
- الهوان هو ان يشرب الروس الفودكا بقحف جمجمتك . ان معدتك يا بني باتت لا تتحمل خبز القمح .
- الارض التي تعطينا سنابل القمح باتت لا تتحمل وجودهم ، تتقيأ منهم .
- كفانا مواعظا ياميرو ولكن تذكر سيأتي الضابط الروسي ومعه الرجال والبنادق .
- لا يهمني ذلك ولن انكب بندقيتي !
- ولكنه يهمنا .
- وكيف ؟ سأله ميرو بتحدٍ .
- اذا حدث شئ ضدهم سيبيدوننا جميعا .
- ها .. انك تخاف على نفسك !
- اخاف على الجميع .
- لا تخف . الروس يعرفون اصدقاؤهم . الست دليلهم والتاجر الوحيد الذي يدخل معسكراتهم ؟!
- ماذا تريد ان تقول ؟

واشار ميرو الى الجميع

- اريد ان اقول انهم يدوسون على حقولنا ، يحرقون بيادرنا ، يسرقون نسائنا الجميلات ، فأية كرامة لكم ، والى متى ترتجفون هلعا ، الى متى يخرجونكم الجنود الروس من احضان زوجاتكم ؟!! تبا لكم .. تفو . !

وحاول ميرو ان يخرج ولكن صوتا كأسنان المنشار اوقفه ، نظر ميرو الى الوراء ليرى الشيخ شامار يبتسم بهدوء ويشير اليه بالعودة والجلوس . عاد ميرو الى مكانه وهو يلقي نظرة ازدراء على ئازك الذي كان يثبت عمامته على رأسه الاصلع . اما العم شامار فقد حل الجد على كلماته ، واخذ ينظر الى البعيد والكلمات تنساب من بين شفتيه حادة مؤثرة .

- 3 -

تلقف مام ئيوهرام حجارة من الارض وراح يركض وراء الكلب شالان الذي تعود على مثل هذه الاهانات ، وسرعان ما رفع ذيله السنجابي الطويل كعادته ، وركض الى مقدمة القطيع . وكان الكلب شالان يتعمد الوقوف امام الراعي العجوز اثناء الصلاة . انهما ركعتان لا اكثر ولكن الكلب اللعوب يعرف كيف يثير حفيظة راعيه الذي كان يصرخ ..

- اذهب .. اذهب الى الجحيم ايها الكلب اللعين . لتذهب انت واجدادك الكلاب . انها المرة الالف التي تبطل فيها صلاتي في الصباح . ليغفر لي الرب . ماذا اقول للملائكة يوم تأتي لتزهق روحي ؟! آه ليغفر لي الرب (ثم بصوت خفيفي) رغم انني اشك بانه سيفعل ! وضع عصاه على رقبته ، وشبك يديه حولها ، ومضى يجمع اشتات قطيعه الذي تبع شالان نحو كامير . وما ان توهجت الشمس في المشرق كرغيف احمر حتى خرجت كل الاحياء تبحث عن رزقها . وطردت الحشائش خيوط الطل التي غزتها في ساعات الصباح الاولى اما المياه التي تجمدت في الحفر الصغيرة فقد داهمتها ارجل الحيوانات وغاصت خجلة بين ثنايا الارض . وهنالك على رابية مواجهة لسهل كووكاو كانت سازان قد وصلت توا بخرافها الى هناك ولمحت ميرو وهو يجلس على صخرة يبري بخنجره غصن بلوط . اقتربت منه ونفخت على اذنه فجفل من مكانه فقالت ضاحكة ..

- عمت صباحا يا ميرو . نظر ميرو في عمق عينيها وقال ..
- لا ادري يا سازان كيف كانت تبدو بالاگريوه بدونك !.

وأخذها بيديه ، وجلسا على الاعشاب فبدا سهل كووكاو فسيحا ينتهي شرقا الى جبل (بانكول) الذي كان يبدو كالحلم يلفه ضباب فضي كثيف . قالت سازان ..

- سمعت ابي يتحدث عنك ليلة امس ، قال شيئا عن مخاصمتك لئازك . وسمعته يقول بانك تشبه اباك .
- ابي .. واهكم كان يجب بالاگريوه .
- كيف ؟! سألته سازان .

وضع ميرو ابهامه على شفتيه ، ثم ابتسم وقال ..
مـرة خرجت مـع ابي ، اركبني خلفه بغلتـه . كان الوقت عصرا ، وكان قيتاس العجوز يحفر قبرا قديما يبحث حفادته عن جرة او مصوغات ، خفت ، التصقت بابي كان جسمه مغطى بصفوف الرصاص . تمنيت لو انني تحت شراهه . اه حتى تحت جلده لو احشر نفسي داخل رصاصة . يالابي كم كان يحب الرصاص . كنت اقول في نفسي . ترى لو دفن ا مع كل هذه الرصاص . وبعد الف عام . وبعد الف عام لو جاء مثل هذا العجوز قيتاس وحفر الارض عند ذاك تنفجر الارض تحت قدميه . تنفجر رصاصا وزيا كريا . احتميت بظهر ابي من جديد وشعرت بشئ من الزهو . وسألته ..

- ابي .
- نعم يا بني .
- ابي .. هل يعرف الله اللغة الكردية ؟ !

التفت الي كـأنني ذبحته من الخلف . كـانت شعيرات من شاربيه الغليظتين قـد مالت اخيـرا نحو البيـاض . ولكن خصلات فاحصة اخرى قد تسللت من تحت الجمداني على كتفيه . وشممت من فمه رائحـة السيكار وقليـل من أريج القرنفل تعلقت به من معانقة امي .. وقاطعته سازان ..

- هل كان يحب امك كثيرا ؟!

- كثيرا ، ولكنه لم يظهر امـامنا شيئا من ذلك . المهم ان ابي ضجر كثيرا من سؤالي . نظر حواليه باستياء وبصق من بين اسنانه ثم تململ على السرج واصلح من حاله . كان غضبه حارا كلهيب المجامر فقد ايقظت فيه الف عام من عشق الله ومحبته له . الله هو كل شئ ، المصائف والمشاتي والمراعي وجلبة الاغنام وثمار الاشجار وحرارة الشمس هكذا تخيلت ان يقول لي . كدت اشفق عليه رغم صغر سني ، فقد كان يتمنى لو كان في القرية عراك كي يمرغ في التراب . هـذه كانت مهنته ، يقاتل كالتيس وينتشي جانبـا يقاتـل شرطة الحدود في الليل ، ويعرف كيف يرشيهم في النهـار . يقود عشرات الفرسان في الليالي الظلماء وهم يحملون الترياق والخشخاش والهيروين ، ولكن هذا السؤال ازعجه . الا انه تكلم اخيرا :

«قبل الف الف عام ، وبعد ان طرد الله ادم من الفردوس ، وكثرت ابناؤه ، انتشرت في الارض . وكان لابد لهم من ان يتفاهموا بها فبذر الله اللغات في الارض كما يبذر الفلاح القمح . وقال لنا .. هاكم لغتكم ايها الاكراد .. الله سمانا اكرادا «همس ميرو في اذن سازان» هذه لغتكم خـذوها ، وعلمـوها لابنـائكم كما تعلمـونهم تسلق الجبـال وصيـد الوعول ! كان الله في عجلة من امره ، فعشرات الشعـوب كانت تنتظر لغاتها . ومنذ ذلك التأريخ . اخذنا نبني بيوتنا في الاعالي كما تبني الصقور اعشاشها . وهناك نرفع انوفنا الطويلة المعقـوفة . المهم ان لا تصـل الايدي الى لغتنـا . ونستطيع ان نعود متى ما نـريد . واصبحنـا كالصخـور العملاقة نلتصق بالجبل ولا نتزحزح الا معه . ومن هناك نراقب كل شئ . انها تحت اقدامنـا ، السهوب والمـراعي وحقول الحنطة . ومن هنـاك استطاع ابـائنا الصمـود ، واغاروا على اعدائهم كما يغير النسر على الحمائم والارانب الضعيفة . وعندما يصلون الينا لا يرون الا الاجساد القوية المتحجرة . وهكذا منذ الازل لم ننس كلام الخالق ، نعم يا بني ، الله يعرف كل شئ حتى لغتنا البائسـة !» . بعدهـا نظرت فيما حولي يا سازان . اي زهو هو هذا ، الله يتكلم بلغتنا الكردية ايضا . وعاد ابي الى الكلام دون ان يفكر بما سيقوله ، كانت الكلمات والجمل تأتيه من اجيـال بعيدة ، تصرخ في داخله . وكانت تلك فـرصته ليمـلأ رأسي بحكم الاجداد ، غير اني لم اسمع منه غير هذا الكلام . كنت انظر الى قمة الجبل فقد كانت مضيئة رغم هبوط الظلام !

وساد بينهما سكون عميق نظر خلاله ميرو الى وجه سازان فرآها تسرح في البعيد ، تنظر الى قمة بانكول التي كـانت تتدثر بخيوط من السحائب السـوداء تتجه شمـالا صوب الامبـراطورية العثمـانية . وتنـاغي الى سمعـه اصـوات فرسان ، وصوت يقول ..

- هوذا يا سيدي الضابـط !! وفجأة كـان امامهـا اكثر من خمسـين فارسـا من الجنود الروس يصـوبـون بنـادقهم نحـوهما ، وخلفهم ضـابط روسي مـد ابهامـه الى الامـام وصرخ .. اطلقوا النار !!

وتعـانق اثنان .. فتى وفتـاة .. تهاويـا وصبغا العشب الاخضر احمرا . احتضنا بعضهما وغابا في عناق طويل . واتجا الجنود نحو بالاكريوه يتقدمهم ئازك .. تاجر القرية !